النضال فى سبيل الطفولة

كلمة حضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك

نائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعى

أرى واجباً علىّ أن أفتتح حديثى بشكر الوزيرين الجليلين : وزير المعارف ووزير الشؤون الاجتماعية ، إذ أغدق كل منهما على الرابطة كلمات التشجيع وأثرها بجميل العطف وصور عمها عطفي حديراً بتكريم ، وبذلك عظمت التبعة على الرابطة وأصبح فرضاً عليها أن تحقق ما يقتضيه ذلك التشجيع وأن تثبت كفايتها لهذا العطف ولوزيرين فاضلين أرد فى لباقة أن تقع الرابطة فى حرج شديد فتخذل من تفهما الرفيعة ومنهما لها صوراً لما تقوم به الجمعيات العاملة وفرض أن الرابطة مرآة هاتيكا الصور وتشبث بذلك مهتمها وبقى العبء كاملاً على كاهل الرابطة . ونحن نقبل هذا الاحراج ونتحداه وإن كنا ضعفاً فى الجهود واثقوى . ونبدأ بما بدأت به الدعوة المحمدية الكبرى أعنى الايمان الصادق ، وإذا صدق الايمان فلا ارتداد ثم ولا نكوص . ولقد آمنا الايمان كله بفكرة الاصلاح الاجتماعى . ومضينا فى طريقنا — على قلة المورد — تحدونا همة وتعيننا مثابرة . وها نحن أولاء نفتتح اليوم معهد دراسات الطفولة كما افتتحنا بالأمس دار كفالة الطفل . وسنفتتح فى القريب إن شاء الله دوراً للكفالة للفتاة ، مفكرين دائماً فى يمكن إنشاؤه من دور الخدمة العامة مستأنسين بذلك العون المادى والأدبى الذى نلقاه من الجهات المختلفة حكومية أو شعبية ، منتظرين أن يزيد العون حتى تزداد به جهودنا إنتاجاً .

ولقد وقفت منذ أيام مناسبة كهذه المناسبة فى محفل قريب من هذا المحفل أتحدث فى "معركة الاصلاح الاجتماعى" فصورتها معركة لها عدتها وجنودها ولها أسلحتها وميادينها ولها برامجها وخططها ، وقلت إنها هى معركة الكفاية وهى عماد صغير بالاضافة إليها . ولكى نجح فى المعارك الأخرى يجب أن نصطنع معركة الاصلاح حتمية وتساءلت أين العدة ؟ وهل وضعنا خطة ، وهل أعددنا جنداً ، وهل عبأنا ميداناً ، ثم عقدت وجوه شبه بين معركة الاصلاح ومعركة الحرب ، وأثبت أنه لا بد من قادة درسوا أدواء المجتمع المصرى دراسة تستند إلى إحصائيات دقيقة وموازنات نافعة ولا بد من روية فى وضع خطة تخرج بنا عن سياسة الارتجال وكذلك لا بد من قبس من العلم المفيدة فى أمم المتحضرة بما يلائم البيئة القومية ، وقلت فى حديثى إن أعداء المعركة الفقر والمرض والجهل والانحلال الخلقى ، ومحاربة هذه الأعداء تحتاج إلى صبر وإقدام ومثابرة ، فليس فى معركة الاصلاح الاجتماعى هدنة ولا سلام ! ! !

و بينما أنا أعدد الميادين التي تنشب فيها معركة الاصلاح ألمعت إلى ميدان الطفولة لماعا وأنا اليوم أفرده بالحديث . و إذا ذكرت الطفولة فإنما أعني المستقبل ، أعني الجيل الجديد بل أعني الأجيال المتتابعة حتى تقوم الساعة فإنه إذا خبثت الطفولة خبث الشباب وخشنت الرجولة في الأعقاب وأعقاب الأعقاب . فطالب الزرع الصالح يعنى بالبذر الصالح فإن قصر في اختياره كان حصاده الخراب والهلاك . والطفولة في مصر مشكلة يجب أن يكون علاجها ملء الاصلاح و يجب أن يكون العلاج عاما في الأحزاب والحكومات والجماعات ، عاما في البيوت وفي معاهد التعليم ؛ بل يجب أن يكون فرض عين تتوافر له الجهود من المال والجاه والعلم والتجربة . فهل قامت المعركة في ميدان الطفولة ؟ وهل جمع القادة أمرهم لانقاذها ؟ وهل تدارسوا ما يتطلبه الانقاذ من خطط ؟ إن من صفة المؤمنين الجهر بالحق دون مواربة . ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الحيوية للأمة فأذنوا لي أن أكاشفكم بأن الطفولة في مصر مهملة ، تبذل لها حتى اليوم عناية جديرة بالاعتبار . فالطفولة مهملة في قصر الغني وكوخ الفقير ، فما في قصر الغني فالطفل مكفول له الغذاء الطيب والفراش الوثير ، ولكنه يتيم في حضن أبويه ، شقي وهو يتقلب في النعماء ، فقير وهو يلعب بالمال ، وذلك لأنه فقير الروح والنفس عديم الخلق والتربية . فأما الطفل في كوخ الفقير فكما تعلم : غذاء مقوص ، وكساء ملفق ، ومأوى غير صالح ، ونشأة كما يتفق أن تكون .

فهل هيأنا للطفولة مؤسساتها ؟ وهل راعيناها وهي جنين وحين ولدت وحين شبت ؟ وهل عرفنا أنها تطلب أولا والدين صحيحين في الجسم والعقل ليستطيعا إنشاءها نشأة صالحة ؟ وهل التفتنا إلى أن الطفل كالمرآة تنطبع عليها أول ما تنطبع أعمال الوالدين ؟ وهل أعددنا الأم وهي التي تسوق الطفل عجينة تسويها على النحو الذي تفهم ؟ إني لأذكر أني قلت في بعض المواقف : لو تركت لي الأم دون معقب لأخرجت البنين من المدارس وملأتها بالبنات حتى يتسنى لي إخراج جيل من الأمهات الصالحات ، ورحم الله شوقيا إذ يقول :

وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

فالأمهات الجاهلات يرضعن أطفالهن جهالة صحية وجهالة اجتماعية تخرجهن مهازيل في العلم والجسم فيصبحون عالة على البلاد .

ولقد ذكر معالي وزير الشؤون الاجتماعية عبد الله ابن الزبير ورجا أن يكون في الأمة العربية أمثاله همة نفس وعظمة شخصية ؛ فلننظر كيف نشأ ذلك البطل الهمام : إنه نشأ في حضن أسماء بنت أبي بكر وكيف كانت أسماء ؟ حسبكم منها أنها هي التي أخرجت ولدها هذا ليلقى الموت حين ضيق الحصار عليه الحجاج بن يوسف ، وقالت له : إن كنت تدفع عن حق

فأقدم ولا تسكت عنه فقال لها : إنى لأخشى أن يمثلوا بى بعد القتل . فأجابته إن الشاة يا بنى لا تألم السلخ بعد أن تذبح . فانظروا أى أم كانت أسماء ، ولا تعجبوا بعد ذلك أن يكون ولدها عبد الله على العظمة التى سجلها له التاريخ .

ولست فى هذا المقام أتحدث عن طفولة العاصمة ونحوها من المدائن و إنما أتحدث عن طفولة القطر كله أعنى طفولة ستة عشر مليونا من أبناء مصر يسكن الريف من بينهم ثلاثة عشر مليونا أو أكثر ، و إنها لمهمة شاقة أن نعد الأمومة فى هذا العدد العظيم ولكن يجب أن نبدأ الجهاد وأن نبذل المال فى سخاء فلا خير فى مال ليس وراءه رجال ، ولا خير فى عهود تحسب فى تاريخ الأمة وهى خلاء من الاصلاح .

والرعاية الصحية فى مقدمة ما تفتقر اليه الطفولة ، فهل أنشأنا فى أنحاء الحواضر مؤسسات صحية تسد حاجة البلاد ، وهل يجمل هذا الركود فى بلد قيل فى احصائياته إن كل فرد تكمن فيه ثلاثة أمراض على الأقل ، وأين المؤسسات فى الريف وكلنا يعرف أنها لا تبلغ عشر معشار ما يجب أن يكون ؟

ولطالما قلت إن من العبث أن نلقى العبء دائما على الحكومة فإن لها من المشاغل العامة ما يقف جهدها دون الغاية المنشودة ، و إنما يجب أن تنهض الأمة بنفسها وتتولى أمرها ان كانت تريد لها بقاء محمود الأثر وتبغى أن تستخلف خلائف جديرين بالنسبة الى مصر وتاريخ مصر . وهنا يقوم واجب الأغنياء فإن لزاما أن يكون فى مالهم حق معلوم لهذه المؤسسات المرجوة بل يقوم واجب الطبيب والكفء والمجرب لها أجدر أن يكون لكل مؤسسة حق من وقت الطبيب وجهد الكفء ومعرفة المجرب ومال القادر . فاذا عنينا بصحة الطفولة بنينا أمة غير مريضة منهوكة ، والمعول فى الأمم على سلامة الصحة لا على زيادة العدد وما خير أبناء يعدون ثم لا يلبثون أن تحصدهم العلل أو يعتريهم الهزال .

فأما الرعاية الاجتماعية للطفولة فهى من عويص المشكلات لأنه يجب أن نتفق على نوع المجتمع الذى نريده وننشده ونعرف ماذا يتطلب المستقبل لأولئك الأطفال الذين خلقوا لزمان غير زماننا . والعالم يتمخض الآن عن حياة كدح وشقاء وامتحان . فالنشء الجديد أحوج ما يكون إلى أن تربى فيه غرائز الطموح والشجاعة والصبر . ونحن فى مصر لما نتفق بعد على خطة السير بالأمة فى طريق الحياة . وما زلنا نتراشق بالتهم . فهذا رجعى يعود القهقرى ، وهذا مجدد يتجاوز الحدود . فعلينا أن نجمع كلمتنا على نوع الثقافة الذى نرضاه . ووجهة الحياة الاجتماعية التى نسعى اليها حتى نمضى فى طريقنا صفا .

ويحسن بى هنا أن أشير إلى نظام التعليم الأولى الذى قصد به إعداد الطفل الإعداد الثقافى . فهل وفى بالغرض ، إننا نسمع فى كل يوم صيحة ونقرأ فى كل مناسبة دراسة

إلا أنه يمكن أن يقال عن أية حال إن الأطفال في معاهد التعليم الأولى لا ينعمون بالرعاية التي ترجى للطفولة . ثم يبقى المعنيون للهيئة الاجتماعية لرعاية الأطفال، ولم تعد الأمكنة الصالحة لاستفادتهم استفادة صحية مثمرة . وأمامنا مشكلة التغذية وقد ارتفعت في شأنها الأصوات ثم هدأت لتثور وسكنت عواطف البر . وطوى المشروع الذي رحب به خبراء الاصلاح . ولو تقصينا أسباب ذلك لاتضح لنا أنها جميعا ترجع الى سبب واحد هو أن تعاون الاجتماعي معدوم في المجتمع المصري . فكل يعيش لشأنه وجاهه ومتاعه .

ثمتى نفهم أن العلم واحد وأن ركاة تؤدى ، ومتى نفهم أنه اذا لم تنجح الدعوة الحرة في حث على الزكاة صار واجبا أن تقوم أساسها بقوة التشريع فتفرضها على الأكفاء والقادرين فرضا محتوما وعرض المتعذرين منها لجزاء . وإنه لخير أن نقسو ونشتد في سبيل المصلحة العامة حتى لا تدع البلاد تدوى زهرتها وريحانها الفناء .

ولتسمحوا لي أن أنهي القادرين على إنقاذ الطفولة مع التقصير عن القيام بهذا الواجب أنهم يريدون خراب بلد لعدم حسه ومستقبله . فهم يرون أعداء الطفولة من الفقر والجهل والمرض تغير من كل ناحية ويعدون مكتوفة أيديهم لا يبدون حراكا فلنفرض عليهم الواجب فرضا ولنجند القادرين على الإصلاح جميعا .

الحق إن مشكلة الطفولة فوق ما تتصوره من الخطر، والحق أن انقاذ الطفولة يجب أن يكون برنامج الجمعيات وموضع تشجيع الحكومات . فلقد خسرنا بإهمال الطفولة خسارة جسيمة يقدرها لكم مندوبنا في تقرير لعلم أحنى إذ يقول :

"لقد لمست لدى الطفولة المصرية عن كثب فهو في أرفع مستوى . ثم رأيته بعد أسابيع يجمد شيئا فشيئا . وليس رجع لبيئة . فالأب عامل من عوامل إطفاء الذكاء ، والأب عامل أيضا . والمدرسة قد تكون ملاكا لولا أن ما تتعارضه المدرسة يفسده البيت فهما يتعارضان"

نسؤم بعد هذا قول في مشكلة الطفولة . ولنحص حازمين راشدين لإنقاذها ، ولنعلم أننا إن أعددنا الطفل أعددنا الشعب لكرم العزيز . وقد قال شوقي :

ورب قتير قوم علموه ... سماؤهما لسومة العرابا
فكان لقومه نفعا وخيرا ... ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلا ... سيأتي يحدث العجب العجابا

وها هي ذي رابطة الاصلاح الاجتماعي تقوم في هذا الميدان الواسع بمواردها القليلة منشئة معهد دراسات الطفولة وهي تعلم أنها تحدث بهذا المعهد أثرا محدودا في دائرة محدودة ، ولكنها على أية حال تعطي مثل وتحفز الهمم العامة أن تقوم بجانبها الجماعات التي تمد يدها للنهوض بجانب من هذا العبء الثقيل الذي لثقيل كثير ، ولضعف إلى الضعف قوة . والله نصير العاملين .